

عُزَيْرٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ

دخل حديقته فإذا هي مخضرة العود، وارفة الظلال، دانية القطوف، تصدح فيها البلابل، وتطرب الأطيّار، فقضى ساعته متملياً^(١) بما فيها من جلال، مستمتعاً بما تحويه من شيات الجمال، ثم مائة سلة من العنب، وأخرى من التين، واصطحب مقداراً من الخبز، وامتطى حماره، وأخذ طريقه إلى المنزل.

وبينما هو يفكر في سر الكون، وعظمة الوجود، ضلّ به السير، واضطرب أمامه الطريق، واشتبهت معالم الجهات، وإذا هو في قرية خربة تحدث عن قوم فرقهم عدواء الدار^(٢)، واحتبلتهم حبول المنايا: رؤسوم دارسة، وأطلال عافية، وعظام نخرة، وأجساد بالية.

فزل عن حماره، وألقى بالسلتين إلى جواره، وربط الحمار، وأسند ظهره إلى جدار حتى يجمع نفسه، ويسترجع قوّته وفكره؛ ثم طاب له المكان، واستراح إلى النسيم، وأطلق العنان لعقله يفكر في هذه الأموات وكيف تُنشر، وتلك الأجساد وأنّى تبعث؛ بعد أن أصبحت أديماً للأرض، وتراباً يجود عليها كل أسحم^(٣) هطال. ثم استحال هذا التفكير إلى سهوم ووجوم؛ ثم أغمضت عيناه، وتخاذلت ركبته، ودخل في نوم مشتمل، وكأنه لحق بمن في القبور.

ومرت مائة عام مُجرّمات، وهَرمت أطفال وفنيت أعمار، وامّحت شعوب، وتقوّضت صروح، وعُزير مُلقى في مكانه جسداً بلا روح! وعظامه ممزقة الأوصال، مهشّمة المفاصل، حتى أذن الله أن يفصل في قضية حارّ الناس في أمرها، واستعجم عليهم طريقها، واختلفوا في تقريرها بحكم يلمسونه بأيديهم، أو يقع تحت حسهم وأبصارهم،

(١) متملياً: مستمتعاً.

(٢) العدواء: اليبس.

(٣) أسحمت السماء: صبّت ماءها.

فجمع عظامه، وسوى خلقه، ونفخ فيه من رُوحه، فإذا هو قائم مكتمل الخلق، شديد البَضْعَة، وإذا هو عُزير يقوم كأنه مُتَبِّهٌ من نومه، يبحث عن حماره، ويفشش عن طعامه وشرابه!

وجاء المَلَكُ يسأله: أتنظن كم لبثت في رَقْدَتِكَ يا عزير؟ قال - ولم يُروْ ولم يفكر: لبثْتُ يوماً أو بعض يوم! قال: بل لبثت مائة عام تسكن هذه الأجداث، ويجودك الطل^(١)، وتهضِب^(٢) عليك السماء، وتمر عليك السافيات الذاريات، ومع هذه السنين الطويلة والأزمات المتعاقبة، فإن طعامك ما زال سليماً، وشرابك لم يتغيّر؛ ولكن انظر إلى حمارك تراه مُفَرَّقَ العظام، مُتَفَصِّي^(٣) الأعصاب، والله - جل شأنه - سيُريك هذه العظام، كيف ينشرها ويحييها، ويبعث الحياة فيها؛ لِتُطَمِّنَ نفسك بالبعث، ويزداد إيمانك بيوم الميعاد، وَلِيَجْعَلَكَ آيَةً للناس تخرجهم من حنَادِس^(٤) الشك، وتوضح لهم ما استعجم عليهم من مذهب الإيمان.

وتلفَّت عُزير؛ فإذا حماره بأشراطه^(٥) وسماته، قائم على أربع، تجري فيه شرايين الحياة! فقال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٦).

وأخذ حماره، وشرع يتعرف الطريقَ إلى بيته، وقد تبدلت المعالم، وتحولت المنازل، وبدأ يسترجع ماضيه كأنه يتذكر في حلم بعيد... حتى انتهى إلى منزله، فإذا عجوز ذَوَى عودُها، ووَهَنَ عمودها؛ ولكنها لا تزال باقية على تناسخ المَلَوْنِ^(٧)، وتعاقب الجديدين، وقد غَشِيَ بصرها، كانت هذه أمتُه التي خلفها في ربيع حياتها، وريّو شبابها.

سألها: أهذا منزل عُزير؟ قالت: نعم، هذا منزل عزير؛ وخنقتها العبرة، ثم جادت

(١) الطل: المطر الخفيف يكون له أثر قليل.

(٢) هضبت السماء: دام مطرها أياماً لا يقلع.

(٣) فَصَّ الشَّيْءَ: فصله.

(٤) حنادس: جمع حنْدَس: وهو الظلمة.

(٥) أشراط جمع شرط: وهو العلامة.

(٦) سورة: البقرة، الآية: ٢٥٩.

(٧) المَلَوْن: الليل والنهار.

عينها بدمع هَتُون^(١)، وقالت: لقد ذهب عُزِير، ونسيه الناس، وما رأيت من حقبة بعيدة مَنْ ذَكَرَ عُزِيرًا إِلَّا الْآنَ!

قال: أنا عُزِير أَمَاتَنِي اللَّهُ مائة عام، وها قد بعثني إلى الوجود، ورَدَّنِي إلى الحياة؛ فاضطرب أَمْرُ الْعَجُوزِ، وَأَنْكَرْتُ عَلَيْهِ بَادِي الرَّأْيِ دَعْوَاهُ، ثُمَّ قَالَتْ: إِنَّ عُزِيرًا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا، مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ؛ مَا تَطَلَّبَ أَمْرًا إِلَّا تَقَبَّلَ مِنْهُ اللَّهُ، وَلَا تَشْفَعُ لَهُ فِي مَرِيضٍ إِلَّا شِفَاؤُهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُصَحِّحَ جِسْمِي، وَيَرُدَّ بَصْرِي. فدعا الله، فإذا هي ذات بصر جديد، ووجه وضيء! فَقَبَّلَتْ يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَتْ مِنْ سَاعَتِهَا إِلَى الْقَوْمِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِيهِمْ أَبْنَاؤُهُ وَأَحْفَادُهُ، مِنْهُمْ مَنْ بَلَغَ الثَّمَانِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ بَعْتُ الْخُمْسِينَ، وَفِيهِمْ أَتْرَابُهُ، وَقَدْ بَرَى الدَّهْرُ عِظَامَهُمْ، وَأَبْلَى أَبْرَادَ شَبَابِهِمْ، وَرَدَّاهُمْ عَلَى حَافِرَتِهِمْ. وصاحت: إِنَّ عُزِيرًا الَّذِي فَقَدْتُمُوهُ مِنْذُ مِائَةِ عَامٍ قَدْ رَدَّاهُ اللَّهُ رَجُلًا غَضَّ الْإِهَابَ، يَخْطُرُ^(٢) فِي مَطَارِفِ الشَّبَابِ.

وطلع عليهم عُزِير رَجُلًا وَافِرَ الْمُتَةِ، مُسْتَوِي الْخَلْقِ، شَدِيدَ الْأَسْرِ^(٣)؛ فَأَنْكَرُوا صِفَتَهُ، وَأَعْظَمُوا فَرِيقَتَهُ، وَلَكِنْهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَفْتَنُوهُ بِالرَّأْيِ، وَيَمْتَحِنُوهُ بِالْبِرْهَانِ؛ قَالَ أَحَدُ أَبْنَائِهِ: إِنَّ لَأَبِي شَامَةً فِي كَتِفِهِ كَانَ يَتَمَيَّزُ بِهَا، وَيُعْرَفُ بِصِفَتِهَا. وَكَشَفُوا عَنْ كَتِفِهِ، فَإِذَا الْعَلَامَةُ كَمَا عَرَفَهَا أَبْنَاؤُهُ، وَكَمَا سَمِعَ عَنْهَا أَحْفَادُهُ، وَلَكِنْهُمْ أَرَادُوا أَنْ تَطْمِئِنَّ قُلُوبُهُمْ، وَتَسْتَيْقِنَ نَفُوسُهُمْ، وَتُثْمِحَ خِيُوطُ الشَّكِّ مِنْ بَيْنِ جَوَانِحِهِمْ، فَقَالَ كَبِيرُ مِنْهُمْ: لَقَدْ حُدِّثْنَا أَنَّهُ مِنْذُ زَحْفٍ بِخَتْنَصْرٍ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَمِنْ وَقْتٍ أَنْ أَحْرَقَ التَّوْرَةَ، لَمْ يَكُنْ عَلَى الْأَرْضِ مَنْ يَحْفَظُ التَّوْرَةَ إِلَّا قَلِيلًا، وَمِنْهُمْ عُزِيرٌ؛ فَإِنْ كُنْتُ عُزِيرًا فَاتْلُ عَلَيْنَا مَا كُنْتَ تَحْفَظُهُ مِنْهَا، فَقَرَأَهَا لَهُمْ لَمْ يَتْرِكْ آيَةً، وَلَمْ يُحَرْفْ جُزْءًا، وَلَمْ يَخْرِمْ لَفْظًا.

عند ذلك صافحوه مصدقين، وأقبلوا عليه مباركين، ولكنهم - لشقوتهم - ما ازدادوا إيمانًا، بل ازدادوا كفرًا، وقالوا: ﴿عُزَيْرَ ابْنِ اللَّهِ﴾^(٤).

(١) الهتون: الكثير القطر.

(٢) خَطَرَ: تبختر.

(٣) الأسر: شدة الخلق.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

صراع بين الحق والباطل

أخوان من بني إسرائيل تحدّراً عن رجل واحد، وأرضعتهما أم واحدة، ولكنهما تباينا في طبعهما كما تتباين الثبّة والنبتة وأصلهما واحد، والزهرة والزهرة وكمهما متشابه؛ فيهوذا نشأ مؤمناً بربه، عارفاً بمقدار نفسه، عفيفاً كريماً، وقوراً، حليماً، أعرض عن الدنيا وخُدعها، وغضّ طرفه عن متاعها وزخرفها، وقُطُرُوس نشأ كافراً جاحداً، شحيحاً بخيلاً، كزّ اليدين، غليظ الكبد، جافي الطبع.

وجَمَعهما أبوهما على ثروة ضافية، ونعمة وافية، حتى إذا عَلِقَهُ حِمَامُه، وطُويت من الحياة أيامه، اقتسما المال والعقار، وذهب كل منهما في إنفاقه مذهباً يُؤثّم طبعه، وينسجم مع نحيزته وهواه.

أما يهوذا فقد توجه إلى الله قائلاً: يا ربّ، إني سأخرج مالي في مَرْضَاتِكَ، وسأبذله في طاعتِكَ، شكراً لنعمائك، وطمعاً في جنتِكَ... وانطلقت كفاهُ بالإنفاق؛ فأعطى العافي^(١)، وفكّ العاني^(٢)، وحملَ الكلّ^(٣)، وبذل المعروف وأعان على نوائب الدهر، حتى رَقَّتْ حَاشِيَةُ حاله، ونَفِذَ ماله أو كاد، ولكن ظلّ دهره هادئ الضمير، مُرتاح الفؤاد، قانعاً بالكفاف، راضياً بقليل الزاد...

أمّا قطروس فإنه ما كاد يتسلم ماله، حتى احتواه، ووضع دونه المفاتيح والأغلاق، ثم حرّم السائل، وجبّه القاصد، وأصمّ أذنيه عن أنّه الفقير، وأغمض عينيه عن رؤية المسكين؛ ثم ارتفقَ حَاطِطِينَ^(٤) أنفقَ عليهما عُمره، وأراق فيهما ماء شبابه؛ أنبتهما كرمًا فأورزقا وأثمرأ، وامتدَّ عَرْشُهُمَا، وأورقَ ظلهما، ثم اتخذ بينهما طريقاً

(١) العافي: كل طالب معروف.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) الكلّ: أي اليتيم.

(٤) الحائط: البستان.

عَبَّدَهَا ومهدّها، وأجرى بينهما الماء، وحَاطَهُمَا بالنخيل، فكان رائيهما يحسب أن جنة الخلد قد نزلت إلى الأرض في أبهى حُلَلِهَا وأنفس حُلَاهَا: رنغ^(١) خصب، وثمر قريب، وورق نَضِر، وماء خَصِر^(٢) وزهر ينفَح، ووُزِق تصدح، حتى أصبحتا نزهة السمع، وفتنة البصر.

ثم بسط الله في رزقه، وزاد في ماله، وبارك في ثمره، ورزقه بنين وأولاداً، زادوا في مظاهر نعمته، ورفاهية عيشته.

وتلك النعمة التي ظلَّ يمرح في أبرادها، ويتقلب على جنباتها كان خليقاً به أن يتدبر صَانِعَهَا ومُجَرِّبَهَا، ومانحها ومُعْطِيَهَا، فيؤمن ويشكر، ويُدْعِنُ ويحمد، ولكن فريقاً من الناس تُطْغِيهِم النعمة، ويغشَى على بَصَائِرِهِم النعيم، ويظلون سادِرين^(٣) في غلوائهم^(٤)، ممعنين في إغفالهم، حتى يَقْرَعَهُم الدهرُ بنباه، فإذا الغشاوة ترتفع، والحجبُ تَمَزَّق.

كذلك كان قطروس، وما ازداد على نعمة الله إلا كفراناً، وما أثمرت عنه إلا طغياناً. مرَّ عليه أخوه في خُلُقَانِهِ^(٥) المرقعة، وأسماله البالية، فاقتحمه بعَيْنِهِ وازدراه في نفسه، ونالَ منه بقارس قوله:

أين مالك ونَشَبُكَ؟ أي فضتك وذَهَبُكَ؟ لَشَتَّان ما بيني وبينك! أنت رقيق الحال، ممزَّق السَّرْبَال، فاقد الأعوان، قليل الإخوان، وأما أنا فكما تراني، في بُلْهَنِيَّة^(٦) عَيْشٍ، وخَفْضِ أيام، ولي مَالٌ وبنون، وخَدَمٌ وأعوان. تَعَالَ ادخل إلى جَنَّتِي، ترَ الكُروم المهدَّلة^(٧)، والأعواد المخضرة، والمياه المتفجرة، والظلُّ الوارف، والغصن العاطف، والثمر الداني القطوف، ثم انظر إلى هذه الشمار، إنها تَزْبُو في كل عام، وتنتج وافراً في كل أوان، هو خير دائم ما أظنه يَنْفَدُ، وثوبٌ من النعمة ما أراه يَبْلَى.

(١) الرَّيْع: الموضع ينزل فيه زمن الربيع.

(٢) خَصِر: استد برده.

(٣) سَلِير: لم يهتم ولم يبال ما صنع فهو سادر.

(٤) الغلواء: الغلو، غلواء الشباب: أوله وحدته.

(٥) خُلُقَان جمع خَلَق: وهو الثوب البالي والجلد البالي.

(٦) البلهنية: الرخاء وسعة العيش.

(٧) هدل الشيء: أرسله إلى أسفل وأرخاه.

أَمَّا السَّاعَةُ الَّتِي تَرْجُفُ دَائِمًا بِقِيَامِهَا، وَالْبُعْثُ الَّذِي مَا بَرِحْتَ تَلْهَجُ بِوَقُوعِهِ وَضَرُورَةِ حُصُولِهِ، فَمَا أَحْسَبُهُ قَوْلًا مَفْهُومًا، أَوْ سَائِغًا مَعْقُولًا، عَلَى أَنِّي لَوْ جَرِيتُ فِي عِنَانِ فِكْرِكَ، وَخَضَعْتُ لِمَفْهُومِ قَوْلِكَ، فَإِنِّي لَا بَدَّ وَاجِدٌ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ، وَأَكْرَمَ مِنْ هَذِهِ الثَّمَارِ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ آثَرَنِي فِي دُنْيَايَ بِالْخَيْرِ؟! فَمَا يَمْنَعُ عِنْدَهُ أَنْ يُؤْثِرَنِي فِي آخِرَتِي بِمَا هُوَ أَكْرَمُ عِنْدَهُ، وَأَحْسَنُ لَدِيهِ؟!

قَالَ يَهُودَا: إِنَّكَ لَتَكْفُرُ بِاللَّهِ، إِذْ تَنْكُرُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْعَثَكَ، أَوْ يُحْيِيكَ بَعْدَ مَوْتِكَ فَيَحَاسِبَكَ، أَفَمَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ أَحَالَ النُّظْفَةَ عِلْقَةً، ثُمَّ صَيَّرَ الْعِلْقَةَ مُضْغَةً، ثُمَّ جَعَلَ الْمَضْغَةَ عِظَامًا، ثُمَّ كَسَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَصْبَحَ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْسَانًا عَجِيبَ الْأَسْرَارِ... أَفَمَنْ مَرَّتْ بِهِ أَدْوَارُ حَيَاتِهِ عَلَى هَذَا النُّحُو، يُعْجِزُ خَالِقُهُ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنْ مَرْقَدِهِ، أَوْ يَنْشُرَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ؟!

لَا، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَأَقْرَبُ لَدِيهِ؛ وَلَكِنْ عَلَى قَلْبِكَ غِلَافٌ، وَفِي سَمْعِكَ وَفَرْ^(١)، وَعَلَى عَقْلِكَ حِجَابٌ، فَاشْتَبِهَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ، وَنَدَّ عَنْكَ الصَّوَابُ.

ثُمَّ تُعَيِّرُنِي بِالْفَقْرِ، وَتُكَاثِرُنِي بِالْمَالِ، وَأَنَا فِي فَقْرِي أَغْنَى مِنْكَ فِي غِنَاكَ فَلَيْسَتْ الثَّرْوَةُ بِمَا تُحْزِرُ مِنْ مَالٍ، أَوْ تَحْوِيهِ مِنْ مَسْتَعْلَاتٍ وَعَقَارٍ، مِمَّا تَشْغُلُ بِهِ دَائِمًا، وَيَتَعَلَّقُ بِهِ أَمْلُكَ، بَلِ الثَّرْوَةُ إِنَّمَا تَقْدَّرُ بِقَدْرِ مَا تَزْهَدُ فِيهِ مِنْ حَاجٍ، أَوْ تَسْتَغْنِي عَنْهُ مِنْ مَتَاعٍ وَزَخْرَفٍ، وَأَنْ تَلِكِ الْجَوَاهِرُ الَّتِي تَفْخَرُ بِهَا وَتُكَاثِرُنِي عَلَى حِسَابِهَا، لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ فِي نَظَرِي حَصَى يَتَأَلَّقُ، أَوْ آلَا^(٢) يَلْمَعُ؛ وَذَلِكَ الْبَسْتَانُ الْمَوْنِقُ الْمُعْجَبُ، لَا يَجَاوِزُ فِي تَقْدِيرِي عُشْبًا يَطْلُعُ فِي الْأَرْضِ يَنْمُو وَيَتَرَعَّرُ، ثُمَّ يَبْسُ وَيَصْبِحُ هَشِيمًا^(٣) تَذْرُوهُ الرِّيحُ، وَذَلِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ تَعْتَدُّ بِهِمْ لَيْسُوا إِلَّا أَعْوَانًا لَكَ عَلَى الشَّرِّ، يُطْغُونُكَ وَيَفْتِنُونُكَ، أَمَّا أَنَا فَحَسْبِيَ بِاللَّهِ نَصِيرًا وَوَكِيلًا.

وَالنَّعْمَةُ كُلُّ النَّعْمَةِ عِنْدِي أَنْ أَجِدَ الْكَفَافَ حَاضِرًا، وَالصَّحَّةَ قَارِهَةً، وَأَنْ أَكُونَ أَمِنًا فِي سَرِييَ، خَارِجًا مِنْ سُلْطَانِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، وَلَئِنْ أَجُوعَ يَوْمًا فَادْعُوا اللَّهَ،

(١) وَفَرْنَ أُذُنُهُ وَقَرَأَ: ثَقُلْتُ أَوْ صَمْتُ.

(٢) الْآلُ: السَّرَابُ.

(٣) الْهَشِيمُ: الشَّجَرَةُ الْبَالِيَةُ يَأْخُذُهَا الْحَاطِبُ كَيْفَ يَشَاءُ.

وأشبع يوماً فأحمدُهُ وأشكرُهُ، خير لي من هذا المال الذي قد يُبْطِرُنِي ويَطْغِينِي، كما أبْطِرُك وأطْغَاك، وعسى ربي - كفاءً لما صبرتُ على قضائه، وما أنفقتُ من مالي على فقرائه - أن يَكُون قد أعدَّ لي جنة خيراً من جَنَّتِكَ، ونعيماً مُقيماً خيراً من نعيمِكَ.

أمَّا جَنَّتَاك هَاتَانِ فقد لا تأمن عليهما عوادي العَوَاصِفِ، أو تقلبَ الأنواء^(١)، فإذا الأوراق جافة، والكُرُومُ كَعَصْفِ^(٢) على الأرض مأكول، وهذا الماء النَمِيرُ^(٣) الذي يجري سلسلاً بينهما، فيبعث الحياة، وينشرُ الموات، قد يغور في أعماق الأرض فتستطلبه بكل حيلة، وتحتال لاستنباطه بكل سبيل، فإذا هو أعزُّ عليك من بيض الأنوق^(٤).

وفرغ «يهودا» من قوله، ثم ترك أخاه يُعْجَبُ بيستانه، ويمرُحُ بين أزهاره ونَوَّاره.

وأصبح «قطروس» يوماً، وذهب كعادته إلى جَنَّتَيْهِ يستروح - كما اعتاد - النسيم، ويتَفَقَّه ظلال الكروم، فما راعه إلا أن رآهما أطلالاً بالية، ورسوماً عافية، ونبتاً مصوّحاً^(٥)، وعُروشاً محطّمة، وأعواداً ملقاة.

فجفَّ حلقة، وغُصَّ بريقه، وتساقطت خوافيه وقوادمه، ثم ذلَّت أخادعه، ولان بعد جماحه، ودان بعد طماحه، وأخذ يقلب كَفِّهِ حسرة على ما أنفق، ويقول: ﴿يَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾^(٦).

(١) الأنواء جمع نوء: وهو النجم إذا مال للغروب وله معنى المطر الشديد.

(٢) العصف: ورق الزروع أكلته الدواب وداسته وأفتته.

(٣) النмир من الماء: الطيب الناجع في الري.

(٤) الأنوق: طائر يخفي بيضه كيلا يظفر به أحد.

(٥) مصّح النبات مصوحاً: ولى لون زهره.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

أصحاب الجنة

تنفس الصباح، وهبت نسائمة هيّئة ناعمة، وأقبل الشيخ وثيد الخطو، مبهور^(١) النفس، أحنّت ظهره السنون، وألأن قناتهُ الإصباحُ، والإمساءُ، ولم يكد حاجب الشمس يبدو حتى كان يدُقُّ بِعَصَاهُ بابَ حديقته في ضَرَوَانٍ^(٢).

وكانت حديقَةُ الشيخِ جَنَّةً دَانِيَّةُ القُطُوفِ، فَوَاحَةُ الزهر، قد رقت حَوَاشِيهَا، وتَأَنَّقَ واشِيهَا، وجرى الماء في جداولها عذباً سلسلاً، وتنقل النسيم بين خمائلها بليلاً دانياً، وعلى بساطها نَشْرَ الربيع حُلله ومطارفه، وحاك أزهاره وأنواره؛ وفيما وراء ذلك أشجار موقرة بالثمار، وبقل، وأعناب، وزرْع، ونخيل، صِنَوَانٌ وغير صِنَوَانٍ، فغدت مُتَعَّةُ الناظر، ونزهة الخاطر، واتخذها النَّاسُ مَثَابَةً وَأَمْنًا، لهم تحت أشجارها ظلٌّ ومَقِيلٌ، وبين أفيائها سَمَرٌ وحديث.

ودار الشيخ في جنباتها، وتنقل بين زرايبها وأنماطها، فنشَقَ من شذا الأزاهير، وامتلاَّت عينُهُ بداني الثمار وأصغت أذناه إلى تغريد البلابل وتطريب الأطيّار، ثم ذهب إلى مُصَلَّاهُ فسجد شاكراً لله أنعمه، راغباً إليه أن يجنِّبه طغيانَ الغنى، وأن يُثْنِيَهُ عن فتنة الدنيا ووسوسة الشيطان.

وتلك كانت عادةُ الشيخِ مُصْبِحَ كلِّ نهار، ثم يتعاقب الجديدان، وتتوالى عَشِيَّات وأصائل، حتى يرى الجنة قد آتت أكلها، وأذن حصاؤها، فيدعو البستاني وأعوانه، ويُعْمَلُونَ المناجل، ويقطفون الثمار، ثم يَقْدُ إِلَيْهِ جماعاتُ الفقراء على ما عودهم من كل عام، فيعطيههم نصيبهم وافراً؛ هذا يملأ مِكْتَلَه، وذاك يحمل في ثيابه، ولهم بعد ذلك ما أخطأه المنجل، وما تركه الحاصد، وما تناثر بين الأشجار رزقاً حلالاً طيباً، وجرى على هذا في كل عام.

(١) البُهْرُ: تتابع النفس من الإعياء.

(٢) ضروان: بليد قرب صنعاء سمي باسم واد هو على طرفه.

لم يُطَقْ أبناءُ الشيخ صبراً: أن رأوا مال أبيهم موزعاً بين الفقراء، وبستانه مستباحاً للمساكين، وأنهم والعافين والسائلين سواء، بل ربما كان هؤلاء أحسن منهم حالاً، وأكثر بالجنة استمتاعاً.

قال قائل منهم: إنك يا أبي بما تنفق على الفقراء وتعطي، وما تخصصهم به من بذل ورِفْد، فتَبَخَّسْنَا حقنا، وتضيق علينا في رزقنا.

وقال غيره: وإنك يا أبت لو مَضَيْتَ في شأنك هذا فإنك سوف لا تُبْقِي مَالاً ولا نَسَباً، وسوف لا تخلف ضَرَعاً ولا ثَمراً، وستغدو بعدك فقراء نمذ الأيدي وتتكف الناس.

وهمَّ ثالث بالكلام، فأشار إليه بالصمت، وأدار عينيه في وجوه الجميع وقال: ما أراكم إلا خاطئين في الوهم والتقدير، ما هذا المال الذي تريدون أن تتحكموا فيه وتستأثروا به؟ ليس المال مالي أو مالكم، وهذا البستان ليس في حوزتي أو حوزتكم، إنما هو مالُ الله مَكْنِي فيهِ وآمَنِي عليه، على أن أنْفِقَه في أَكْرَم وجوهه، وأنْفِعها لخلقه؛ فللفقراء والمساكين حَقُّهم، ولأبناء السبيل والعافين نصيبهم، وللطيور والبهائم طعامها، وما فَضَّل بعد ذلك فهو لي ولكم، ذلك ما فعلته وعودته الفقراء وأنفدت فيه حكم الله، والمال بهذا يَزْكُو^(١)، وعلى هذا النحو من الإنفاق يزيد، وتلك خطة درجت عليها شاباً طريراً^(٢) والتزمتها رجلاً كهلاً؛ فكيف بي أن أتركها اليوم شيخاً هَمّاً فانياً؟ على رِسْلِكُمْ، فها أنتم أولاء ترون شَعْرِي قد اشتبه، وجسمي قد نحل، وعودي قد ذَوَى، والأسقام قد أخذت سبيلها إليّ، ولن ألبث إلا قليلاً حتى ألقى الله، وإنكم سترثون البستان والمال والنعم والشاء، وأنتم بين خطتين؛ إن أنفقتم فإن الله وَعَدَ مُنْفِقاً خلفاً، وإن بخلتم فإن الله أنذر مُنْسِكاً تلفاً، وله فيكم أمر هو بالغة.

ولم يمكث الشيخ طويلاً حتى لَزِمته العلة، وألَحَّ عليه السقم، ثم لفظ آخر أنفاسه، وفرغ من شؤون الناس والحياة.

ومضت الأيام سراعاً، وتهيات الحديقة للجَنِّي، ودنت أثمارها للقطوف، واستشرف الفقراء لنصيبهم في الثمر، دأبهم في كل عام.

(١) يزكو: ينمو ويزيد.

(٢) الطرير: الذي نبت وطلع شاربه.

واجتمع الأبناء يديرون الرأي، ويُعدُّون شأنهم للحصيد؛ قال قائلهم: لم يُعدَّ بعد اليوم في البستان حق لسائل أو فقير، ولم تصبح الخمائل^(١) مأوى لقاصد أو ابن سبيل، ولكل نصيبه يُثْمَره إذا شاء، ويخزن منه ما يشاء، إننا لو فعلنا ذلك فإن شأننا سيعلو، ومالنا سيزيد.

قال أوسطهم - وكان أقرب إلى أبيه نحيزة^(٢) وجيلة، وأدنى إلى الخير واصطناع الجميل -: إنكم تقدمون على أمر تظنونونه خيراً لكم، ولكنه يحوي الشر في طياته، وتحسبونه نفعاً لكم، ولكنه سيقضي على بستانكم من جذوره. إنكم لو حرمتם الفقراء، وعطلتم حق المساكين، لا تأمنون منهم شراً، واعتداء، ويوشك - لو فعلتم - أن يعلنوها ثورةً وعدواناً؛ امنحوهم حقهم، واذهبوا مذهب أبيكم في إرضائهم، وما فضل بعد ذلك فإن الله ينميّه، ويبارك فيه.

ولكنهم صاحوا في وجهه: لا تقترح شيئاً فيما لا تملك، وكفّ عن نصائحك ولن تجد منا إلا آذاناً صماء!

قال: أما إذا رأيتم ألا تسمعوا لقولي، أو ترغبوا في نصحي، فعليكم بالصلاة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقد تردكم إلى الحق، وتعطف قلوبكم على الفقراء، ولكنهم ما استمعوا، ولا أجابوا.

وبيّثوا أمرهم عشاءً أن يقوموا في عمّاية الصبح، وقبل أن ينبلج عمودُ النهار ويفارق النوم مضاجع الفقراء، ويعمدوا إلى الحديقة يقطفون ثمارها ويوزعون فيما بينهم أنصباءهم منها، ﴿أَقْبَمُوا لِيَصْرِفْنَهَا﴾^(٣) مُصْرِفِينَ ﴿وَلَا يَسْتَنْوْنَ﴾^(٤).

وعلم الله سوء نيتهم، ودخيلة نفوسهم، وما انعقد عليه رأيهم من حرمان المسكين، وأكل نصيب السائل والمحروم، فأرسل إلى جنتهم طائفاً^(٥) قلع نبتها وأسقط ثمرها، وجفف أوراقها وأعوادها.

(١) الخمائل جمع خميلة: الأرض السهلة الطيبة يشبه نبتها خمل القطيفة.

(٢) النحيزة: الطبيعة يقال هو كريم النحيزة.

(٣) ليصرفنها: يقطعون ثمرتها.

(٤) سورة القلم، الآية: ١٧.

(٥) طائف: نار أحرقتها ليلاً.

وطلع عليهم النهار وهم على أسوار الحديقة يتساءلون: أهذه جَنَّتُنَا، وقد تركناها بالأمس مُورِقَةً الشجر، جارية الماء، فَوَاحَةً الزهر، دانية القطوف؟ ما نظن أن هذه حديقتنا، وإننا لضالون.

قال أوسطهم: بل هي جنتكم حُرِّمْتُمْ منها قبل أن يُحْرَمَ الفقير، وجُوزِيتُمْ بأسوأ ما يُجزى لِحَزٍّ^(١) شحيح ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾^(٢٨) قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَنْتَهِ يَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾^(٢).

ولكن مَضَى قدر، وبقي أسف، وليذوقوا عاقبة كيدهم ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٣٣)^(٣).

(١) لحز: شحيح بخيل.

(٢) سورة: القلم، الآيات: ٢٨ - ٣٢.

(٣) سورة: القلم، الآية: ٣٣.